من أطراف الأحاديث (8 والأخيرة)

زيد بن عمرو بن نفيل.. أمة وحده

بقلم: د. يعقوب يوسف الغنيم

- تمســـك بالحنيفية وتجنب عبادة الأصنام وأحيا الموءودة وصلى إلى الكعبة وكان لا يأكل إلا ما ذُكر اسم الله عليه واعتزل عادات وصفات الجاهلية
- وصف النبي ﷺ بدقة وأن قومه «قريش» ســـيخرجونه وهجرته إلى يثرب وظهور أمره فترحّم عليه الرسول ﷺ وقال: رأيته في الجنة يسحب ذيولاً
- أذاه عمه الخطاب أذى شديداً جعله يخرج إلى أعلى مكة وأغرى به عدداً من شباب وسفهاء قريش بمنعه من دخولها وتناوله بالأذى خوفاً على دينهم الباطل
- هل كان توحيد زيد بن عمرو بن نفيل تمهيداً لرسالة الإسلام إلى النبي محمد ﷺ وأن نرى في مكة وما حولها من يبحث عن دين يرتضيه مبتعداً عن عبادة الأصنام؟
- اجتمع زيد بن عمرو وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبدالله بن جحش وأكدوا أن قريش وما حولها خالفوا دين إبراهيم وابتغوا لأنفسهم سبلاً إلى الحق
- تنصّر ورقة بن نوفل وبشر بنزول الوحي على رسول الله ﷺ أما زيد فقد كان الأعدل أمراً وثباتاً فاعتزل الأوثان وفارق اليهودية والنصرانية إلى الحنيفية
- أرشده راهب في صومعة: عليك بدين أبيك إبراهيم كان حنيفاً ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً ويصلي ويسجد إلى الكعبة فإن الله يبعث هناك الرسول الخاتم ﷺ

إن الهدى هدى الله، ومن يهده الله فلا مضل له. وهذه حكاية رجل هداه الله، عز وجل، عاش في الزمن الجاهلي الذي سبق العصر الإســلامي. وبالتحديد: قبل نزول وحي السـماء على رسـول الله محمد بن عبدالله ﷺ بوقت قصير.

تعلـق قلبه بدعوة أبينا إبراهيم عليه السلام، ورفـض كل ما عدا ذلك، بـل وانفرد بهذا الموقف دون الآخرين من أبناء زمانه.

وقد أمضى زمنا من حياته وهو يبحث عن الدين القويم، ويسأل كل ذي دين من الأديان السـماوية عنه، إلى أن رأى أن ما هو الحق، وما ينبغي أن يتمسـك به هو الحنيفية: دين إبراهيم الخليل، فسار على هداه ودعا قومه إليه.

وسنرى أنه كان ــ في حياته ــ حريصا على أمرين، همـا: البحث عن الدين الذي ينبغي له أن يتمسـك به، وقد وجده فيما ذكرنـاه، ودعوة قومه إلـى الانخراط في هذا الدين، مـع حثهم على مجانبة عبادة الأصنام. والبعد عن ارتكاب المحرمات. وكان يقول لهم وهو مسـتند إلى جدار الكعبة: «يا معشـر قريش، والذي نفسي بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري».

ثم يقول: «اللهم لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم».

وقد حفظ له معاصروه صفات كان منها:

1 ــ إنه يحيي الموءودة (وهي الوليدة التـي يعـزم أهلها علـى دفنهـا حية في الجاهلية بدعوى أنها قد تجلب لهم العار إذا كبرت)، فكان يدفع إلى أهلها مالا يفتديها بـه، ثم يتولـى رعايتها والإنفـاق عليها بقية حياتها.

2 ــ وكان يصلـي متجهـا فـي صلاته إلى الكعبة.

3 ــ ويقول: إلهي هو إله إبراهيم، وربي هو رب إبراهيم، وديني هو دين إبراهيم.

ومن أجل ذلك، فإنه من الجدير بنا أن نجعل آخر أطراف الحديث عن هذا الرجل الـذي اهتدى إلى الحق، ودعا إلى اتباعه، وشذ بذلك عن قومه.

وهذا الرجل هو زيد بن عمرو بن نفيل، الذي لم يكن متأخرا في ميزان قومه، فهو ينتمي إلى أسـرة عالية النسب فيهم، لها مكانـة مرموقـة في مكـة، وصيت وصل إلى كافة أنحاء جزيرة العرب، إضافة إلى استغنائها بمالها الوفير.

إنـه من بنـي كعب بن لؤي القرشـي، العدوي، وكان الخطاب والد سـيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عمه، وأما أمه فهي: أمية بنت عبدالمطلب، وأخته أم المؤمنين زينب بنت جحش إحدى زوجات رسول الله ﷺ.

ومن أجل كل هذا الذي رأيناه منه وعنه، فإننا نرى أن من حقه علينا التنويه بذكره، والتعريف بمآثره.

●●●

هل كان تمهيدا لرسـالة الإسـلام التي أوحى الله بها، عز وجل، إلى رسوله محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ﷺ أن نرى في مكـة وما حولها مـن كان يبحث عن دين يرتضيه مبتعدا عن عبادة الأصنام، حافظا نفسه عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن؟

نعم، ولعل الأمر كذلك، وقد دلنا عليه رجال مثل ورقة بن نوفل، وقس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل، الذين كان لهم شأن في التنبيه إلى هذا الأمر، وقد تحدثنا في الفصل السابع من هذه السلسلة الرمضانية عن واحد منهم هو قس بن ساعدة الإيادي، وهذا حديث نختم به ما بدأنا به، وسيكون عن: زيد بن عمرو بن نفيل الذي كان يعيش في الفترة القصيرة السـابقة على ظهور الإسـلام. وكان من المعروف عنه أنه منذ بـدأ يعقل أمور الحياة اعتـزل كثيرا مما كان الجاهليـون يتصفون به في حياتهم العامة من عادات، ومـا كانوا يدينون به من عبادات كان أهمها: عبادة الأصنام.

ولقـد كان لا يعبد الأصنام مثلهم، ولا يأكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، ولا يجاريهم فـي معاملاتهم التي يشـك فـي موافقتها للطريق القويم الذي كان يتحرى ــ دائما ــ السير فيه.

إذن! فقد كان زيد معروفا باستقامته، والتزامه بدين إبراهيم عليه السلام، وكان مستقيما في حياته، حريصا على فعل الخير للناس على أية صفة كان ذلك.

وقد ذكره كثيرون ممن عاصروه، ورأوا ما كان عليه من استقامة وبعد عن الأخطاء التـي يقع فيها غيـره، فما وجدوا فيه إلا مـا يدل علـى الصلاح والإيمـان الصادق بالله، عز وجل.

ولئن كنا قد ذكرنا بعض الرجال الذين ماثلـوه فـي الصد عـن عبـادة الأصنام، والاتجاه إلـى عبادة الله وحده، فإنه من الجديـر بنـا أن نذكر آخريـن ممن كانت لهـم صلة به، وامتازوا بما كان يتميز به من صفات محمودة، ولقد كان من هؤلاء: عثمان بن الحويرث بن أسد، وعبدالله بن جحش. ويذكر التاريخ لهؤلاء أنهم اجتمعوا فـي إحدى المناسـبات الدينية التي كانت تقام في الجاهلية، فقال بعضهم لبعض.

ألا تـرون أن قومنا ينحـرون الذبائح لصنم لا يضر ولا ينفع، وقد خالفوا دين إبراهيم؟ واتجهوا إلى عبادة صنم لا يضر ولا ينفع؟ وبعد هذا الحوار، نادي أحدهم أصحابه قائلا: تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين إبراهيم وخالفوه، ما وثن يعبد؟ لا يضر ولا ينفع، فابتغوا لأنفسكم سبيلا غير سبيلهم يكون متفقا مع ما تعلمون من الحق.

وبنـاء على هذا خـرج هؤلاء في طلب هذا الأمر الذي أشار به صاحبهم. وصاروا يسيرون في الأرض يلتمسون أهل كتاب من أصحاب الملل السماوية لكي يسألوهم عـن دين إبراهيم الذي خفـي عليهم، فلم يدركوه.

يقـول ابن كثير فـي كتابـه: «البداية والنهاية» ج 1 ص221:

«فأمـا ورقـة بـن نوفـل فقـد تنصر واسـتحكم في النصرانية وابتغى الكتب من أهلهـا حتى علم علمـا كثيرا من أهل الكتاب».

وأما الآخرون فيقـول ابن كثير عنهم: «فلـم يكـن منهم أعدل أمـرا وأعدل ثباتا من زيد بن عمرو بن نفيل اعتزل الأوثان وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها إلا دين الحنيفية دين إبراهيم يوحد الله ويخلـع من هو دونه ولا يأكل ذبائح قومـه فإذا هم بالفراق لما هم فيه».

وكان الخطاب قد آذاه أذى شديدا جعله يخرج إلى أعلى مكة، ولم يكتف هذا العم بذلك، بل وكل به عددا من شـباب قريش وسـفهائها، بمنعه من دخـول مكة، ولذا فإنه لم يكن يدخلها إلا سرا، وكان يلاقي الأمرين عندما يعلمون بوجوده فيها، فهم سرعان ما يتناولونه بالأذى الذي اعتادوا على إلحاقه به. وكانوا يقومون بذلك خوفا مـن أن يفسـد عليه دينهـم الباطل الذي يدفعهـم إلى عبادة الأصنام. أو أن يغري آخرين باتباعه في معارضتهم.

ولقد قال أحد الرواة، واسمه موسى بن عقبة عنه ما يلي: «سمعت من أرضى يحدث عن زيد بن عمرو بن نفيل كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول الشاة خلقها الله وأنزل لها من السـماء ماء وأنبت لها من الأرض نباتا، لم تذبحوها على غير اسـم الله؟ انكارا لذلك واعظاما له؟».

وقال آخر: «وكان زيد بن نفيل قد عزم علـى الخروج من مكة فضرب في الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم وكانت امرأته صفيـة بنـت الحضرمـي كلما قـد نهض للخـروج وأراده آذنت الخطاب بن نفيل، فخرج زيد إلى الشام يلتمس ويطلب في أهـل الكتـاب الأول دين إبراهيم ويسـأل عنه ولم يزل في ذلك فيما يزعمون حتى الموصل والجزيرة كلها ثم أقبل حتى أتى الشام فجال فيها حتى أتى راهبا من أرض البلقاء كان ينتهي إليه علم النصرانية فيما يزعمون فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم فقال له الراهب إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجـد من يحملك عليه اليوم، لقد درس من علمه وذهب من كان يعرفه، ولكنه قد أظل خروج نبي وهذا زمانه. وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئا منها فخرج سـريعا حين قال له الراهب ما قال يريـد مكة حتى إذا كان بأرض لخم عدوا عليه فقتلوه فقال ورقة يرثيه:

رشـدت وأنعمت ابن عمرو وإنما
تجنبـت تنورا مـن النـار حاميا
بدينـك ربـا ليـس رب كمثلـه
وتـركك أوثان الطواغـي كما هيا
وقد تـدرك الإنسـان رحمـة ربه
ولو كان تحت الأرض سبعين واديا

وتتضـح في رواية أخـرى ذكرها ابن كثيـر ملامح بحثه عن الدين الحق عندما اتجه إلـى عدة اتجاهات حتـى تمكن من الوصول إلى ما يرضيه، ويحقق مطلبه، يقول الراوية: إنه كان يتأله في الجاهلية أي أنه يعبد الإله الواحد عز وجل. ويرفض عبـادة الأصنام التـي كان يعبدها قومه، وأنـه ــ في بحثه هذا ــ قد أتى رجلا من اليهود. يقول الراوي:

«فانطلـق حتى أتى رجلا يهوديا فقال لـه أحب أن تدخلني معك في دينك. فقال له اليهودي لا أدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من غضب الله. فقال من غضب الله أفر. فانطلق حتى أتى نصرانيا فقال لـه أحب أن تدخلني معك في دينك. فقال لست أدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من الضلالة. فقال من الضلالة أفر. قال له النصرانـي فإني أدلك على دين ان تبعته اهتديـت. قال أي دين؟ قـال دين إبراهيم قال فقال: اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم عليه أحيا وعليه أموت».

وفي هذا الشـأن يقول زيـد بن عمرو بن نفيل: «شاممت اليهودية والنصرانية فكرهتهما فكنت بالشـام وما والاها حتى أتيـت راهبـا فـي صومعـة فذكـرت له اغترابي عن قومي وكراهتي عبادة الأوثان واليهوديـة والنصرانية. فقـال له: أراك تريـد ديـن إبراهيم يا أخا أهـل مكة إنك لتطلـب دينا ما يوجـد اليوم (أحد يدين به) وهـو دين أبيك إبراهيـم كان حنيفا لم يكن يهوديـا ولا نصرانيا كان يصلي ويسجد إلى هذا البيت الذي ببلادك فالحق ببلدك فإن الله يبعث من قومك في بلدك مـن يأتي بديـن إبراهيـم الحنيفية وهو أكرم الخلق على الله».

وكان يـردد ــ دائما ــ قولـه: «آمنت بما آمن به إبراهيم» ويدعو الله سبحانه وتعالـى مـرددا: «أنفـي لك راغـم، مهما تجشمتني أتجشم» ثم يخر ساجدا، وكان ابنـه سـعيد رجلا صالحـا، صحابيا من الرجال العشرة الذين بشرهم الرسول ﷺ بالجنة. وهو يعرف حال أبيه، واعتقاده دين إبراهيم عليه السلام. فسأل رسول الله قائلا: يـا رسـول الله إن أبي كما رأيـت، وكما بلغك، فاستغفر له. فقال الرسول الكريم: نعم، فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده».

ومما ذكر عن عبادتـه، ما رواه حجر بن إهاب، واثبته ابن كثير في كتابه الذي أشرنا إليه فيما مر بنا. وهو قوله: «رأيت زيـد بن عمـرو بن نفيل وأنـا عند صنم بوانة بعدما رجع من الشام، وهو يراقب الشمس فإذا زالت استقبل الكعبة فصلى ركعة وسجدتين ثم يقول هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل لا أعبد حجرا ولا أصلي له ولا آكل ما ذبح له ولا أستقسم بالأزلام وإنما أصلي لهذا البيت حتى أموت. وكان يحج فيقف بعرفة، وكان يلبي فيقول: لبيك لا شـريك لك ولا ند لك ثـم يدفع من عرفة ماشـيا وهو يقول لبيك متعبدا مرقوقا.

وكان زيد يقول للناس: «أنا انتظر نبيا من ولد إسـماعيل ثم من بني عبدالمطلب ولا أراني أدركه وأنا أؤمـن به وأصدقه وأشهد أنه نبي فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه مني السـلام وسـأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك قلت: هلم! قال: وهو رجـل ليـس بالطويـل ولا بالقصير ولا بكثير الشـعر ولا بقليله وليست تفارق عينـه حمـرة وخـاتم النبوة بـين كتفيه واسـمه أحمد. وهذا البلد مولده ومبعثه ثم يخرجـه قومه منها ويكرهون ما جاء بـه حتى يهاجر إلى يثـرب فيظهر أمره، فإيـاك أن تخـدع عنه فإني طفـت البلاد كلها اطلب دين إبراهيم فكان من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك وينعتونه بمثل ما نعته لك ويقولون لم يبق نبي غيره. قال عامر بن ربيعة: فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ بقول زيد بن عمرو واقرائه منه السـلام فرد عليه السلام وترحم عليه وقال قد رأيته في الجنة يسحب ذيولا».

ومـما ورد عنه فـي الفتـرة التي كان فيهـا يبحـث عـن الدين القـويم ما ذكره ابنه عمـران حين قال: «خرج إلى الشـام يسـأل عن الدين ويتبعـه فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم فقال اني لعلي أن أديـن دينكم فأخبرني، فقال إنك لا تكون علـى ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله، قـال زيد وما أفـر الا من غضب الله تعالى ولا أحمل من غضب الله شيئا ولا أسـتطيعه فهل تدلني على غيره؟ قال ما أعلمـه إلا أن تكون حنيفـا، قال زيد وما الحنيـف؟ قال ديـن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديـا ولا نصرانيـا ولا يعبـد إلا الله، فخـرج زيد فلقي عالما من النصارى فذكر مثله فقال لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله. فقال زيد وما أفر إلا مـن لعنـة الله فهل تدلنـي على غيره قـال ما أعلمه إلا أن تكون حنيفا قال وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيـا ولا يعبـد إلا الله فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج فلما برز رفع يديه فقال اللهم إني أشهدك اني على دين إبراهيم. قال وقال الليث: كتب إلي هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت رأيت زيد بـن عمرو بن نفيل قائما مسـندا ظهره إلى الكعبة يقول يا معشر قريـش والله ما منكم علـى دين إبراهيم غيري، وكان يحيي الموءودة يقول للرجل إذا أزاد أن يقتـل ابنته لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتهـا فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شـئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤنتها».

وهذا تأكيد لحديث سابق.

●●●

هذه ملتقطات مما ورد عن هذا الرجل الصالح الذي هداه الله، عز وجل، إلى دينه الذي أنزله على سيدنا إبراهيم، وهداه إليه بعد بحث دأب عليه، واجتهد في الوصول إلـى نتائجه، إنه زيـد بن عمرو بن نفيل الـذي فر مـن عبادة الأوثـان واتجه إلى عبادة الله عز وجل، فلم تدنسـه أحوال أبناء عصره.

ولم يضع جهده في البحث، فقد حباه الله سبحانه وتعالى بالهداية حتى وجدنا رسـول الله ﷺ يشـهد له بهـا ويترحم عليه من أجلها.

ولقـد مرت بنا شـهادات قومـه الذين عاصروه وأسلم بعضهم، وعرفوا أنه كان على الحق المبين، وأكدوا أنه كان حريصا علـى أن يكون بعيدا عن عبادة الأصنام، وعلى اتقاء الوقوع في العادات السيئة التي كان معاصروه يمارسونها. لقد اهتدى هذا الرجل الصالح إلى ما لم يهتد إليه غيره ممن عاش في زمنه. فنال ثناء رسول الله ﷺ، وهذا هو جزاء الصالحين.

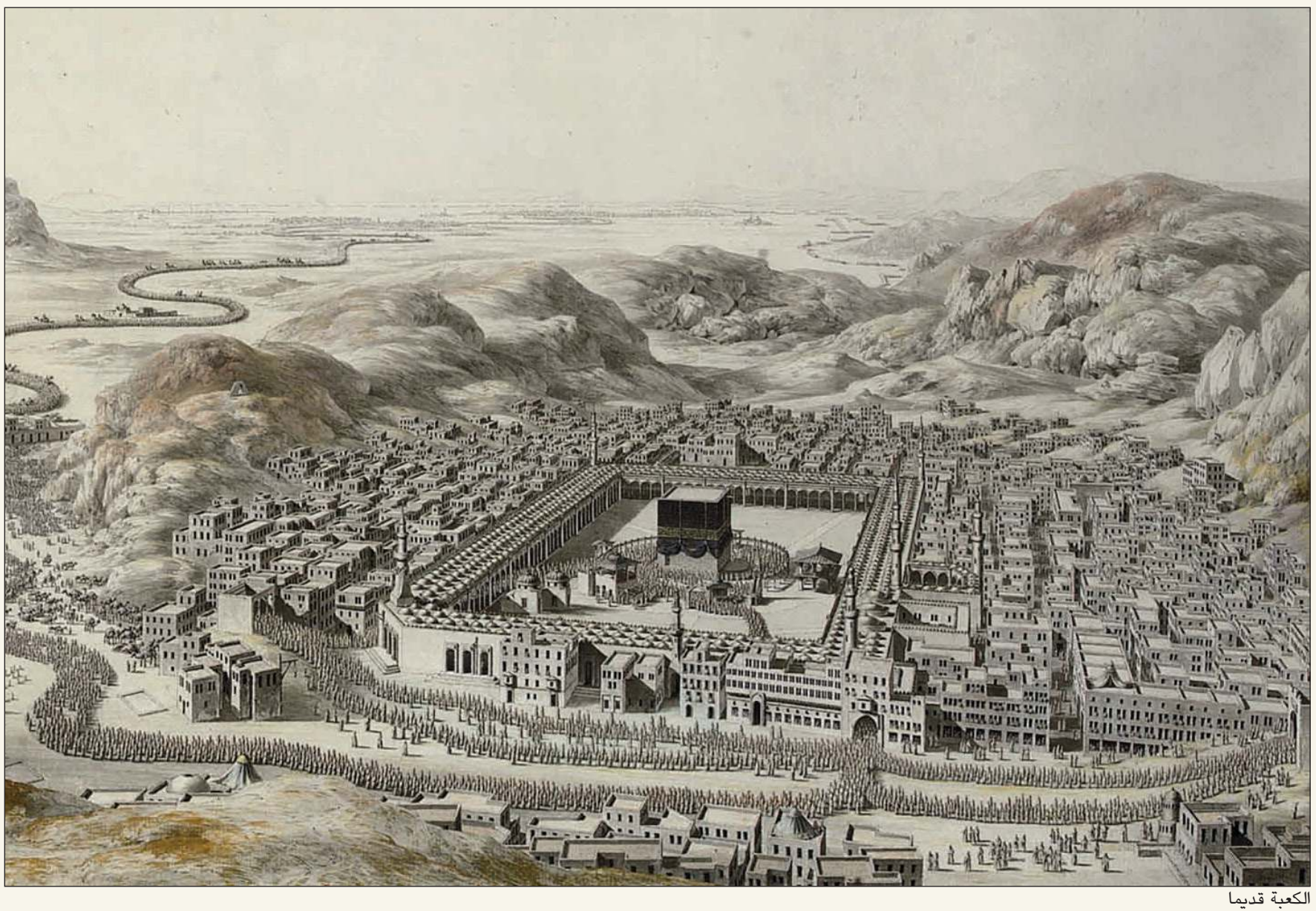

الكعبة قديما